محمد عجاج الخطيب

السُّنَّة قبل التَّدوين



الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٣٩١٧٤٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

نال المؤلف بهذا الكتاب درجة الماجستير فى العلوم الإسلامية
« مادة الشريعة الإسلامية » بتقدير ممتاز من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة

الطبعـــة الثانيـــة

رمضان ١٤٠٨ هـ
أبريل ١٩٨٨ م

أم القرى للطباعة والنشر
٣٩ شارع الزراعة - الساحل
ت ٦٨٥٣٢٠

القاهرة

دليل الكتاب

تقديم

بقلم

فضيلة الأستاذ علي حسب الله

أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهِرَه على الدين كله ، وأنزل عليه كتابه الكريم تبياناً للحق وهدى إلى الصراط المستقيم ، وأمره ببيانه وتنفيذ أحكامه بأقواله وأعماله ليكون للأمة من ذلك دستور كامل ، لا يغادر من أمور معاشهم ومعادهم صغيرة ولا كبيرة إلا وضع قواعدها ، وقرر أصولها ، وأضاء طريق الوصول إلى الحق فيها .

فله الحمد والشكر على ما منح عباده من أسباب الهداية ، وما ضمن لهم من حفظ كتابه ، وما وَفّقَهم إليه من العناية به ، والاستهداء فى تفسيره وتطبيقه بقول رسوله صلى الله عليه وسلم وعمله .

أما بعد فقد اصطنع الله محمداً صلى الله عليه وسلم لنفسه ، ورباه فأحسن تربيته ، وكمل خُلُقه حتى قال فيه — وهو أصدق القائلين — : « وإنك لَعلى خُلُق عظيم »[1] ، ثم بعثه إلى الناس بشيراً ونذيراً : « يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً »[2] .

---

(١) ٤ : القلم   (٢) ٤٥ ، ٤٦ : الأحزاب

وقد افترض عليه ما افترض على الناس من طاعته والعمل بكتابه ، فقال سبحانه : « يأيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً . واتبع ما يُوحَى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا »[1] ، وقال تعالى . « اتبع ما يُوحَى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين »[2] ، وقال : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون »[3] .

وأمره أن يبلغ ما أُنزِلَ إليه فقال : « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بَلَّغْتَ رسالته »[4] ، فَبَلَّغَ صلى الله عليه وسلم ما أمره الله بتبليغه ، وشهد الله تعالى له بذلك فى قوله : « والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وَحْى يوحَى . عَلَّمَه شديد القُوَى »[5] ، وقوله : « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض »[6] ولو أنه قصر فى تبليغ رسالته ، أو بلغ ما لم يؤمر بتبليغه — لَحَلَّتْ به عقوبة ربه : « ولو تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بعضَ الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين »[7] .

كما أمره أن يبين للناس ما خفى عليهم من مقاصده ، ويشرح لهم طرق تنفيذه فقال تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون »[8] ، وقال سبحانه : « وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »[9] .

---

(١) أول الأحزاب .
(٢) ١٠٦ : الأنعام .
(٣) ١٨ : الجاثية .
(٤) ٦٧ : المائدة .
(٥) أول النجم .
(٦) ٥٢ ، ٥٣ : الشورى .
(٧) ٤٤ — ٤٧ : الحاقة .
(٨) ٤٤ : النحل .
(٩) ٦٤ : النحل .

هكذا أعد الله رسوله للقيام بأعباء رسالته ، ثم أمر الناس بطاعته :

أمرهم بطاعته مقترنة بطاعته سبحانه فقال : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تَوَلَّوْا عنه وأنتم تسمعون »(1) ، وقال تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً »(2) ، وقال سبحانه : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا »(3) .

وأمرهم بطاعته استقلالا فقال سبحانه : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب »(4) . وقال تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حَرَجاً مما قضيت ويُسَلِّمُوا تسليما »(5) ، وقال سبحانه : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ، قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لِوَاذاً ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم »(6) .

ثم قرر سبحانه أن طاعة رسوله طاعة له ، فقال : « إن الذين يبايعونك إنما يُبايِعون اللّهَ يدُ اللهِ فوق أيديهم ، فمن نَكَثَ فإنما يَنْكُثُ على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليهُ اللهَ فسيؤتيه أجراً عظيما »(7) ، وقال سبحانه : « من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً »(8) .

ولا خفاء بعد هذا في أن كتاب الله هو أصل دينه ، وأن سنّة نبيّه —

---

(1) ٢٠ : الأنفال .
(2) ٣٦ : الأحزاب .
(3) ٦٩ : النساء .
(4) ٧ : الحشر .
(5) ٦٥ : النساء .
(6) ٦٣ : النور .
(7) ١٠ : الفتح .
(8) ٨٠ : النساء .

قوليةً كانت أو فعلية — هى الموضحة لأحكامه ، والمفصلة لإجماله ، والهادية إلى طرق تطبيقه ، فهما صنوان لا يفترقان ، ومنبعان للتشريع متعاضدان ، ولا شبهة فى أن طاعة الرسول طاعةٌ لله ، ومخالفة أمره معصية لله تعالى ؛ ومن عمل بالقرآن على غير المنهج الذى انتهجه الرسول صلى الله عليه وسلم لا يكون عاملا بالقرآن .

وقد جرت سنة الله تعالى فى خلقه أن يختلف الناس فى تقبل دعوات الرسل ، والأخذ بأسباب الهداية والصلاح مهما قامت الدلائل ووضحت البينات ، « ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم »[1] ، فمنهم من يستجيب لداعى الخير مسرعا مطمئنا ، ويتجنب مزالق الجهل والخسران ، ومنهم من يركب رأسه ويتبع هواه ويضل عن سواء السبيل : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هَدَى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة »[2] . « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الأنس والجن يُوحِي بعضُهم إلى بعضٍ زخرفَ القول غروراً . ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم وما يفترون »[3] ، « ياحسرةً على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون »[4] .

وقد ابتلى المسلمون فى كل العصور بمن يحاول صرفهم عن الإسلام ؛ تارة بالطعن فى كتابه ، وأخرى بمحاولة انتقاصه من أطرافه ، بالطعن فى السنة التى تفصل ما أُجمِل منه ، وتوضح ما خفى ، وكأنهم حين وقفوا من القرآن أمام جبل شامخ لا يلين ، ورجعوا بعد العناء بخفى حنين — ظنوا أنهم قادرون على

---

(١) ١١٨ ، ١١٩ : هود . (٢) ٣٦ : النحل .
(٣) ١١٢ : الأنعام . (٤) ٣٠ : يس .

النَّيل منه بتوهين السنة التي هي عماد بيانه ، فسلكوا لذلك طرقا ، وتكلفوا شططاً ، فمنهم من تجنى على الرواة وطعن في عدالتهم وصدقهم ، ومنهم من طعن في متن الحديث فأنكر منه ما لم يوافق هواه ، ومنهم من ادعى انقطاع الصلة بين الرسول وما يروى عنه وتعذُّرَ تمييز الصحيح منه من السقيم ، لإهمال تدوينه نحو قرنين من الزمان ، وانتشار وضع الحديث انتصاراً لرأى أو إبطالا لمذهب ، فدعا إلى إهمال الحديث جملة والاكتفاء بالقرآن الكريم ، ومن المؤسف حقاً أن يقول بهذا الرأى من يزعم أنه من المسلمين .

ولكن العلى القدير الذى تكفل بحفظ كتابه وأصول دينه بقوله : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »(1) كان يمنح معونته وتوفيقه دائماً للمتقين المخلصين ، ويخذل أعداءه المعاندين : « ولقد استُهْزِئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون »(2) ، « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنَّى ألقَى الشيطانُ فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطانُ ثم يُحكِم الله آياته والله عليم حكيم »(3) ، « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصُورون . وإن جندنا لهم الغالبون »(4) .

فلهذا هيأ لدينه فى كل العصور من يَرُدُّ كيد الطاعنين فى نحورهم ، وهيأ لسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان — من عُنِى بالدفاع عنها بعد البحث فى سندها ومتنها ، بتعرف أحوال رواتها ، وتمييز صحيحها من سقيمها ، ثم حفظها تارة فى الصدور ، وأخرى فى السطور .

لقد كان المسلمون بين أن يدفعهم الحرص على سنة نبيهم إلى تقبل كل

---

(1) ٩ : الحجر .
(2) ١٠ : الأنعام .
(3) ٥٢ : الحج .
(4) ١٧١ — ١٧٣ : الصافات .

مايروى حتى لايفوتهم ماصح منها ، وأن يتأثروا بشبه المضللين فيرفضوه كله حذراً من الأخذ بالموضوع والوقوع فى الباطل ، ولكن الله جنبهم الخطتين ، وعصمهم من الوقوع فى الورطتين ، ووفقهم إلى الطريقة الوسطى ، طريقة الاعتدال البعيدة عن التعصب الأعمى والتحامل الذميم ، طريقة الفحص والتمحيص للسند والمتن ، ووضع القواعد العلمية الصحيحة لمعرفة من يقبل ومن لا يقبل من الرواة ، وما يقبل وما يرد من الأحاديث ، وبهذا ميزوا الخبيث من الطيب ، ونالت السنة بجهودهم ما لم يعهد فى شريعة من الشرائع ، ولا فى نص من النصوص غير الكتاب الكريم .

وكان مما أثلج صدورنا ، وفتح باب الأمل فى شباب عصرنا — أن الطالب المؤمن بربه ، والغيور على دينه ، والمحب لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم السيد « محمد عجاج الخطيب » — سار على توفيق من الله ، وهدى من السلف الصالح ، فاختار لنيل درجة الماجستير فى العلوم الإسلامية من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة — موضوع « السنة قبل التدوين » ، ليدفع ببحثه ما أثاره المضللون من انقطاع الصلة بين الرسول وما بين أيدينا من سنته ، ويظهر ما خفى على كثير من الناس من تدوين بعض السنة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبعضها فى عهد الصحابة والتابعين ، قبل أن تدون التدوين الرسمى المعروف .

وقد رَجَّحَ أن التدوين الرسمى بدأ فى منتصف العقد الهجرى الثامن من القرن الأول حين طلب أمير مصر : عبد العزيز بن مروان بن الحكم من كثير ابن مرة الحضرمى — الذى أدرك سبعين بدريا من الصحابة فى حمص — أن يكتب إليه بما سمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا حديث أبى هريرة فإنه كان عنده . ولا يظن بكثير إلا أن يستجيب لطلب الأمير ، فيجتمع له بهذا ما كان عنده من حديث أبى هريرة وما عند كثير ، وحسبك هذا تدويناً

رسمياً لقسط كبير من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك العصر ، ويكون ما فعله عمر بن عبد العزيز بعد هذا — من العناية بالحديث ومطالبة العلماء فى الأقطار المختلفة بكتابته والجلوس لمدارسته — ليس إلا امتداداً لما شرع فيه أبوه من قبل . وهو رأى يرجحه ماعرف عن السلف من الحرص على حفظ السنة والعمل بها .

وقد اقتضاه البحث أن يتكلم عن الوضع وأسبابه ، وجهود الصحابة والتابعين ومن بعدهم فى مقاومته وتطهير السنة من أوضاره ، وأن يتحدث عن آراء بعض المستشرقين ومن انخدع بهم من المسلمين ، فَيُفَنِّدَ مزاعمهم ، ويرد الحق إلى نصابه فى مفترياتهم ، ويبين فضل الصحابة وعدالتهم ، وحرصهم على العمل بالسنة وحفظها ، وتثبتهم فى روايتها ، واقتداء من جاء بعدهم بهم فى ذلك ، كما تعرض لما أثير حول بعضهم من شبهات فنفاها عنهم .

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا : إن الطالب كان أصيلا فى بحثه ، لم يُعْوِزْه توجيه وإرشاد ، بل جمع بجده كل ما استطاع الوصول إليه من مراجع ، وتناول منها كل مايلائم بحثه ، ثم عرض ذلك على مقاييس صحيحة فى نزاهة وصدق وإيمان ، وبهذا نَظَمَ نَفْسَه فى سلك المحبين للسنة ، الذين بشرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنة فيما رَوَى الترمذى عن أنس رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أحب سنتى فقد أحبنى ، ومن أحبنى كان معى فى الجنة » .

والله المسئول أن ينفع الإسلام والمسلمين برسالته ، وأن يجعل من شبابنا شبابا صالحاً لاتخدعه مظاهر المدنية الكاذبة ، فيعكف على دراسة الدين القويم ، والتراث المجيد ، ويدفع عنهما تهم المبطلين ، وضلال المضلين ، وهو الهادى إلى الصراط المستقيم .

المحرم ١٣٨٣ يونيه ١٩٦٣ على حسب الله